قراءة في كتاب

البديع

تأليف
الخليفة العباسي
عبد الله بن المعتز[1]
٢٤٩-٢٩٦هـ

بقلم : عبد المعز نايف شاكر
الدوحة - قطر

لعل *أول من استخدم لفظة البديع هو عمر بن بحر بن محبوب الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ)، وبخاصة في كتابه (البيان والتبيين) وذلك حين وصف الراعي بأنه كثير البديع في شعره، وكذلك في تعليقه على بيت الشاعر الأشهب بن رميلة بقوله : وهذا الذي تسميه الرواة البديع[2].*

ولا ينكر ابن المعتز أنه سُبق بالتسمية لأن كلمة البديع، والمعرفة بدلالتها «يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم، فلا يعرفون هذا الاسم، ولا يدرون ما هو»[3].

ويفرق ابن المعتز في عبارته السابقة بين علماء اللغة والنحو والشعر القديم، وبين الشعراء والنقاد الذين يتذوقون الأدب وعناصر الجمال فيه، وهذه الفئة الأخيرة هي التي نظرت إلى الأدب نظرة فنية، وأطلقت على هذا النوع من المحاسن البلاغية اسم البديع.

وأول من جمع هذه الفنون في كتاب هو ابن المعتز، وحدّد مفهومها، ووضع مصطلحات لها، وأضفى عليها الصبغة العلمية، ولهذا حُق له أن يقول : «وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد»[4].

ويبدو أن ابن المعتز قد جمع فنون البديع الأولى، وهي التي كثر ورودها في الشعر، ثم وقف عندها، وأنهى كتابه بهذه العبارة، «وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين، وأول من نسخه مني علي[5] بن هارون بن يحيى بن أبي منصور المنجم»[6].

ويبدو كذلك أن بعض النقاد والمتعقبين اعترضوا عليه حين قصر البديع على هذه الفنون، وأشار ابن المعتز نفسه إلى هذا الاعتراض بقوله : «قد قدمنا أبواب البديع الخمسة

وكمل عندنـا، وكأني بالمعانـد المغـرم بالاعتراض على الفضائـل قـد قال : البديـع أكثـر من هذا...»[٧]. مما دفعه إلى أن يضم إليها فنوناً أخرى أطلق عليها (محاسن الكلام)، وضمها إلى الفنون السابقة، لينفي عن نفسه الجهل بها.

ويبدو أن القرن الثالث الهجري الذي ألّف فيـه ابن المعتز كتابـه، قد شهد خلافـاً حول مفهوم الشعر والتجديد فيـه، ففريق التـزم بعمـود الشعر القديم، ورأى في التجديـد تكلفـاً وخروجاً على الصياغـة العربيـة القديمـة لما فيه من ابتعاد عن الطبع، وإغراق في الصنعة، وفريق نزع نحو التجديد في صياغـة الشعر وأساليبـه، مما أدى إلى خلاف واسع ومعـارك أدبية بين الفريقين، ولا ريب أنها كانت نـواة لفكرة كتـاب «الموازنـة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطـائي (ت ٢٣١هـ) وأبي عبـادة الوليـد بن عبيـد الله البحـتري (ت ٢٨٤هـ) لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧٠هـ)[٨].

رأى ابن المعتز هذا الخلاف بين المذهبين، وتعصب كل فـريق لمذهبـه وطريقتـه، فاتخذ طريقـاً وسطـاً بين الناقمين على البديـع، والمتحمسين لـه، فـدعا إلى قبولـه في الشعر إذا كان صادراً عن طبع، بعيـداً عن التكلف، ولكنـه في الوقت نفسه عاب على الذين أسرفوا في البديع وتكلفوه، حتى دفعهم هذا إلى التعقيد والغموض.

غير أن ابن المعتـز شاعر محدث، حفل شعره بأنـواع البديع، ولهذا نبـه على أن البديع قديم موجود في القرآن الكريم والحديث الشريـف والشعر القديم، وأنه ألّف كتابه «ليعلم أنّ بشاراً ومسلماً وأبـا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنـه كثر في أشعارهم، فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم، فأعرب عنه ودلّ عليه»[٩].

واشتمل كتاب البديع على ثمانية عشر فناً، منها خمسة فنون بديعية هي : الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، وردّ أعجاز الكلام على ما تقـدمها، والمذهب الكلامي. أما باقي الفنون، فقد سماها ابن المعتز (محاسن الكلام) وهي الالتفات، الاعتراض، الرجوع، حُسـن الخروج، تأكيـد المـدح بما يشبـه الذم، تجاهل العـارف، الهزل الذي يـراد بـه الجد، حسن التضمين، التعريض والكناية، الإفراط في الصفة، حسن التشبيه، لزوم ما لا يلزم، حسن الابتداء.

ولا ريب أن فنـون البديع التي حواها كتـاب ابن المعتـز ترجع إلى أصـول عربيـة – إذ جمعهـا من كتب المؤلفـين قبلـه من أمثـال الأصمعي[١٠] الـذي ذكـره في صـدر حديثـه عن التجنيس – وكتب الجاحظ، وقد ذكره في بداية حديثـه عن المذهب الكلاميّ، وأرجع التسمية له، وثعلب[١١] الـذي تنـاول بعض هذه الفنـون في كتابـه (قواعـد الشعر)[١٢] والمبّرد[١٣] الذي أفرد للتشبيه باباً طويـلاً، وفصل القول فيـه، كما تحدث عن الكنايـة وأقسامها، وألمّ بكثير من الفنون البلاغية.

لهذا فالكتاب يرجع إلى أصـول عربيـة، ولا مجال لما لاحظـه الدكتـور طـه حسين قبل إطلاعه على كتاب البديع من أن فيه «أثراً بيّنـاً للفصل الثالث من كتاب (الخطابة)، وبعبارة أدقّ للقسم الأول من الفصل الثالث وهو الذي يبحث في العبارة»[١٤].

وليس هناك مجـال كذلك لمـا ذهب إليـه الدكتور محمـد منـدور من أن ابن المعتـز كان يعرف تحليل أرسطو لهذا الوجـه من البديع على أساس أن حنـين بن إسحاق المتـوفي سنـة ٢٩٦هـ قد ترجم كتاب الخطابة لأرسطو[١٥].

والمرجـح أن ابن المعتـز قـد ألـف كتابـه قبل أن يطلع على ثقافات أخرى غـير الثقافـة العربيـة، وأنّ تأليـف الكتـاب، سبق فترة امتـزاج الثقافـات التي ساهمت في تطـور البيان

العربي على يد قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ).

وليس هناك ما يؤكد أن حنين بن إسحاق قد ترجم كتاب الخطابة قبل عام ٢٧٤هـ، وهو عام تأليف كتاب البديع كما صرح بذلك ابن المعتز، لا سيما وأنّ البديع عنصر أصيل في اللغة العربية يدل على ذلك الأمثلة الكثيرة التي جمعها ابن المعتز من القرآن والحديث والشعر القديم.

ومع أن ابن المعتز أطلق على كتابه اسم البديع، فإنه تعرض لفنون أخرى عُدّت فيما بعد من علمي البيان والمعاني. فالاستعارة والتشبيه والتعريض والكناية، من أصول علم البيان عند المتأخرين، ولاتزال أهم موضوعاته، كما اشتمل البديع عنده على بعض فنون علم المعاني كالالتفات والاعتراض، غير أن ابن المعتز لم يفرِّق في كتابه بين ما هو أصيل من هذه الفنون، وبين ما هو كمالي، فالتشبيه والاستعارة والكناية لا يستغني عنها الفن الأدبي والشعري بصفة خاصة لأنها جوهر الصورة الشعرية، بينما المحسنات الأخرى لا تزيد عن كونها وسائل لتحسين الأسلوب.

ويؤخذ على ابن المعتز اعتباره التشبيه مثلاً من محاسن الكلام إذ لم يعدّه من الفنون البديعية الخمسة الأولى، ولا يمكن أن تكون جميع تلك الفنون أهم من التشبيه، فهو يتردد في الشعر العربي القديم أكثر من أي فن آخر.

وربما يرجع عدم تفريقه بين الفنون في كتابه إلى أن علوم البلاغة حتى عصره لم تكن قد فصلت، ويكفي أنه وضع مصطلحات لها، وحددها تحديداً علمياً مما جعل كتابه من أوائل المؤلفات العلمية التي تعرضت لهذا الموضوع.

ولم يستحسن ابن المعتز الفنون البديعية دون أن يبين رأيه فيها، إذ كان يختم كلامه عن كل فن بذكر عيوبه المتكلفة، ومن هذا الباب تعرض في رسالة مستقلة لمحاسن الشاعر أبي تمام ومساوئه، غير أن تلك الرسالة الهامة قد فقدت، واحتفظ أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤هـ) بنصوص منها تخص الجزء الخاص بمساوىء أبي تمام(١٦)، وذلك بسبب أنه خصص كتابه لمآخذ العلماء على الشعراء.

ويبدو أن ابن المعتز اعتبر خصماً لأبي تمام على أساس تتبعه لمساوئه في رسالته، وشجع على ذلك كتاب قدامة بن جعفر الذي ردّ به على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام، لكن ابن المعتز بصفة عامة كان مع الشعراء المحدثين، فهو واحد منهم، وألف كتاب (طبقات الشعراء المحدثين) للانتصار لهم، وقد عثرنا على نص لابن المعتز – في هذا الكتاب – يعدد فيه محاسن أبي تمام، وربما يساعد هذا النص على الوقوف على مقاييس ابن المعتز في استحسانه وكذلك استهجانه. فبعد أن ذكر بعض ابتداءات أبي تمام في شعره قال : «ولو استقصينا ذكر أوائل قصائده الجياد التي هي عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذلك، و إن لم نذكر منها إلا مصراعاً لأن الرجل كثير الشعر جداً، ويقال : إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة، وأكثر ما له جيد، والرديء الذي له إنما هو شيء يستغلق لفظه فقط، فأما أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا، وقد أنصف البحتري لمّا سئل عنه وعن نفسه فقال : جيِّدة خير من جيِّدي، ورديي خير من رديِّه، وذلك أن البحتري لا يكاد يغلظ لفظه، إنما ألفاظه كالعسل حلاوة، فأما أن يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات، بل يغرق في بحره، على أن للبحتري المعاني الغزيرة، ولكن أكثرها مأخوذ من أبي تمام»(١٧).

مصادر البحث

١ – هو الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز، أخذ الأدب والعربية عن المبرد وثعلب، وله مؤلفات كثيرة في النقد والبلاغة، وله كذلك ديوان شعر.

٢ – البيان والتبيين للجاحظ ٣/ ٣٧٤، تحقيق حسن السندوبي، الطبعة الرابعة ١٩٥٦م، مطبعة الاستقامة، القاهرة.

٣ – ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، ص ٦٨٨، وقد تضمن كتاب البديع لابن المعتز.

٤ – نفسه، ص ٦٨٨.

٥ – هو أبو الحسن علي بن هارون المنجم (ت ٢٧٥هـ) كان راوية للأشعار، انظر ترجمته في كتاب الفهرست لابن النديم، ص ١٤٣، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ١٥/ ١٤٤، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٣٧٣.

٦ – ابن المعتز وتراثه، ص ٦٨٩.

٧ – نفسه، ص ٦٨٨.

٨ – صنف أكثر مؤلفاته في النقد، انظر ترجمته في معجم الأدباء ٨/ ٧٥، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/ ١٧٦.

٩ – ابن المعتز وتراثه، ص ٦٢٠.

١٠ – هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي، انظر ترجمته في الفهرست ص ٥٥، وطبقات الزبيدي ص ١٦٧، ووفيات الأعيان ٣/ ١٧٠.

١١ – هو إمام الكوفيين في اللغة والنحو، انظر ترجمته في الفهرست ص ٧٤، ومعجم الأدباء ٥/ ١٠٢، و إنباه الرواة للقفطيّ ١/ ١٣٨.

١٢ – حققه محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى ١٩٤٨م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

١٣ – هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد (ت ٢٨٥هـ) إمام اللغويين البصريين.

١٤ – مقدمة كتاب (نقد النثر) ترجمها عن الأصل الفرنسي عبد الحميد العبادي، ووردت في كتاب (من تاريخ الأدب العربي) ٢/ ٤٨٥، وهي المجموعة الصادرة من بيروت من أعمال الدكتور طه حسين.

١٥ – النقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور ص ٥٩، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

١٦ – الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء لأبي عبد الله المرزباني ص ٤٧٠، وما بعدها حققه علي محمد البجاوي ١٩٦٥م، دار نهضة مصر.

١٧ – طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٨٥–٢٨٦، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الثالثة ١٩٧٦م، دار المعارف، مصر.